

## أنواع التفكير: رؤية تكاملية في السياق الحضاري المنشود

فتحي حسن ملكاوي\*

### الملخص

يُعرّف تفكير الإنسان عن وعيّه بوجوده في الحياة، وبوجود الأشياء والأحداث والظواهر من حوله، وبالكيفية التي يحدث فيها تفكيره. ويحدث التفكير بكيفيات محددة، ولأغراض محددة، وبمواصفات وخصائص محددة، كلّها يعتمد على التعدد في أنواع التفكير. تتناول هذه الدراسة بعض مداخل التصنيف لأنواع التفكير وعرضاً لأنواع وأساليب مختارة من التفكير. إن معرفة الإنسان بأنواع التفكير وخصائصها تمكنه من توظيف النوع اللازم بالمستوى اللازم من المهارة لتحقيق الغرض المنشود. وربما يصعب أن يكتسب الفرد الواحد كل أنواع التفكير، لذلك تسعى المناهج التربوية إلى اكتشاف القدرات المتميزة في الأفراد، وتوفير الفرص الكافية لكل فرد أن ينمو إلى الحد الأقصى الذي تمكنه منه قدراته، وأن تتكامل في المؤسسة والمجتمع أنواع التفكير المختلفة.

**كلمات مفتاحية:** التفكير البشري، أنواع التفكير، مداخل تصنيف التفكير، تفكير نقدي، تفكير إبداعي،

تفكير استشرافي

### Types of thinking: Integrative perspective in the desired civilizational context

Fathi Hasan Malkawi

#### Abstract

Thinking expresses human awareness of his own existence in life, the existence of things around him, and the way in which his thinking occurs. Thinking occurs in specific ways, for specific purposes, and with specific characteristics, all of which depend on different types of thinking. This study addresses various approaches to the classification of types of thinking and presents few selected types and methods of thinking.

Knowledge of types and characteristics of thinking enables a person to employ the necessary type with necessary skill to achieve the desired goal. It may be difficult for a single individual to acquire all necessary types of thinking; therefore, educational curricula seek to discover the outstanding abilities of individuals, to provide adequate opportunities for each one to grow to the maximum extent possible, and to guarantee the needed different types of thinking in the institution or the society.

**Keywords:** Human thinking; Types of thinking; Classification approaches, Critical thinking, Creative Thinking; Prospective thinking.

\* دكتوراه في التربية العلمية وفلسفة العلوم من جامعة ولاية ميشيجان الأمريكية 1984، مدير إقليمي في المعهد العالمي

للفكر الإسلامي. البريد الإلكتروني: [islamiyah@iiit.org](mailto:islamiyah@iiit.org)

تم تسلم البحث بتاريخ 2018/3/25م، وقُبل للنشر بتاريخ 2018/8/26م.

## مقدمة:

لماذا جعلنا "أنواع التفكير" عنواناً لهذا البحث؟ ألم يكن الأجدد أن يكون العنوان "مناهج التفكير"، أو "أساليب التفكير"، أو "أنماط التفكير"، أو "استراتيجيات التفكير"، أو ببساطة "طرق تصنيف التفكير"، أو غير ذلك من العناوين؟ عندما نستعرض عناوين الكتب والمراجع التي تتحدث عن التفكير سنجد مثل هذه العناوين وغيرها مستعملة بالفعل، للدلالة على التعدد والتنوع في الكيفيات التي تتم بها عملية التفكير.

عندما تحدّثنا عن الفكر في كتاب "البناء الفكري"، كان الاهتمام منصباً على نتيجة عملية التفكير؛ وهي الفكر، فحاولنا استقصاء مفهوم الفكر، ومستوياته، والخرائط التي تمثل مصادره، وموضوعاته، وطرق اكتسابه وقياسه، وتاريخه وجغرافيته، وضوابط قبوله. أما في هذا البحث فنحن معيّنون بفعل التفكير لا بنتيجته. واللافت أن جميع المواقع التي قد ورد فيها لفظ الفكر في القرآن الكريم، كانت بصيغة الفعل، وليس الاسم: يتفكّرون، تتفكّرون، ويتفكّرون، وتفكّروا، يتفكّروا، فكّر. واللافت كذلك أنّ لفظ "فكّر" جاء مرة واحدة في سياق ذم من فعل ذلك، لأنّه لم يصل به إلى الغاية الصحيحة، وفي جميع المواقع الأخرى جاء الفعل "يتفكّر" الذي يفيد تكرار الفعل طلباً لغاية نبيلة، وكلها مواقع دعوة ربانية إلى الوصول إلى الغاية الصحيحة عن طريق عملية التفكّر. فالتفكّر فعل يدلُّ على مستوى من مستويات التفكير، جاء على وزن "تفعل" بزيادة التاء والتضعيف؛ أي إنّ الإنسان يبذل جهداً عقلياً إضافياً من التعقّل والنظر والبحث والتأمّل والاعتبار.

وعند تحليل مواقع آيات الدعوة إلى التفكّر وما يتصل بها من تدبّر وتعقّل ونظر وسير، فإننا نجد أن هذه الدعوة تتوجّه إلى نوعين من الآيات: آيات مسطورة في القرآن، وآيات منظورة في العوالم الطبيعية والاجتماعية والنفسية. وفي هذا التمييز يقول ابن قيم الجوزية: "والتفكّر في القرآن نوعان: تفكّر فيه، ليقع على مراد الربّ تعالى منه، وتفكّر في معاني ما دعا عباده إلى التفكّر فيه، فالأول تفكّر في الدليل القرآني، والثاني تفكّر في

الدليل العياني؛ الأول تفكُّر في آياته المسموعة، والثاني تفكُّر في آياته المشهودة. ولهذا أنزل الله القرآنَ لِيُتَّفَكَّرَ فيه، ويُعْمَلَ به.<sup>1</sup>

فالتفكير هو إعمال العقل في الأمر، وتذكُّر ما يعلمه الإنسان عن ذلك الأمر ليصل إلى هدف ما. ومادة التفكير في اللغة تبدأ من الفعل الثلاثي "فَكَرَ"؛ أي أَعْمَلَ العقلَ في أمر ما. و"فَكَرَ تفكيراً" بزيادة التاء في لفظ "تفكير" أي أعمل العقل زمناً أطول، وأحضر معرفة إضافية، ورَتَّبَ المعارف للوصول إلى معرفة جديدة. و"التفكُّر" مرحلة أعلى من التفكير، لأنها تتطلب تكرار التفكير وإشغال وقت أطول وجهداً أكبر للنفوذ إلى ما وراء الأمور الظاهرة.

وفي هذا البحث سوف نعتمد لفظ التفكير، وفي حسابنا أن الألفاظ الأخرى هي مستويات من عملية التفكير نفسها.

والتفكير صفةٌ مميزة للإنسان، فهو كائنٌ مفكِّرٌ، وتفكيره هو وَعْيُه بوجوده في الحياة، وَعْيُه بوجود الأشياء والأحداث والظواهر من حوله، ووعيه كذلك على الكيفية التي يحدث فيها تفكيره. فالصفة الأساس للتفكير هي أنه عمليةٌ ذهنية، فطرية، طبيعية، يمارسها الإنسان، ويبدل فيها قدرًا من الجهد العقلي، بكيفيات محددة، تتضمن آليات وأدوات وعمليات فرعية من الملاحظة، والمقارنة، والتمييز، والجمع والتفريق، والتصنيف، والتحليل والتركيب، يمارسها الإنسان لأغراض محددة، منها حل ما يواجهه من أسئلة ومشكلات، وتحسين ما يقوم به من ممارسات، وتتم بمواصفات وخصائص محددة، تتصل بمستوياته وأشكاله المنطقية، والحسية، واللفظية، والزمانية، واعتماده على نضج الفرد وخبراته، وحوافزه ودوافعه.

ونلاحظ أن وصف هذه "الكيفيات" و"الأغراض" و"الخصائص"، يعتمد على أنواع التفكير التي سوف نتحدث عنها. وسيؤدي هذا الوصف إلى ملاحظة التعدد في كل منها، فهناك تعددٌ في الكيفيات، وتعدد في الأغراض، وتعدد في الخصائص. وسوف

<sup>1</sup> ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، 1432هـ، ج2، ص536-537.

نظّر في ذلك الوصف إلى ثلاثة أمور مهمة: الأمر الأول هو تحديد الأساس أو المعيار الذي نعتّمه في التصنيف، والأمر الثاني هو بيان العدد الذي نميّزه في كل طريقة من طرق التصنيف، وأما الأمر الثالث فهو إعطاء اسم مناسب لكل صنف.

ومن المؤسف أننا لا نجد الباحثين والمؤلفين على اتفاق في أيّ من تلك الأمور الثلاثة. ويصدق ذلك إلى حدّ كبير على الكتب الصادرة باللغة العربية وباللغة الإنجليزية. لذلك اجتهدنا في أن نجعل عنوان هذا البحث "أنواع التفكير"؛ لأن المسألة التي أمامنا هي مسألة التنوع والتعدد، ففي نهاية المطاف نكون أمام عدد من الأنواع التي تتمايز فيما بينها، بصورة يمكن أن نحدد لكل منها وصفاً يميّزه عن غيره، في مجال الكيفيات أو الأغراض أو الخصائص. ويكون "نوع التفكير" مصطلحاً كافياً لهذا التمييز، ويسمح بأن نصف نوع التفكير بأوصافه الدالة عليه والمميّزة له.

إن الهدف من هذا البحث هو التنبيه على أن أهمية التفكير في حياة الإنسان، في جميع مراحل حياته، وتنوع مجالات اهتمامه وتخصّصه، وأن هذه الأهمية تظهر من اختلاف أنواع التفكير تبعاً لأغراضها، ومن ثم يسعى الإنسان إلى أن يوظّف من أنواع التفكير ما يحقق له أغراضه في الحياة الدينا والحياة الآخرة.

### أولاً: مداخل مختلفة لتصنيف التنوع في التفكير

يتناول المتخصصون أنواع التفكير بمداخل مختلفة، منها: المدخل النفسي، الذي يُعنى بمراحل الإدراك أثناء نموّ الإنسان منذ الطفولة، وظهور القدرات العقلية، ونميّز فيه التفكير الحسيّ والتفكير التجريدي، وفي ذلك تفاصيل معروفة في كتب علم نفس النمو *Developmental psychology*، وعلم النفس المعرفي *Cognitive Psychology*.<sup>2</sup>

<sup>2</sup> كفاي، علاء الدين أحمد. علم النفس الارتقائي-سيكولوجية الطفولة والمراهقة، عمان: دار الفكر، 2009م. انظر أيضاً:

- Shaffer, David and Kipp, Katherine. *Developmental Psychology: Childhood and Adolescence*, Cengage Learning, 9 edition 2013.

ومن هذه المداخل: المدخل الديني الذي يميّز بين التفكير الإيماني، الذي ينطلق من الإيمان بوجود الخالق المدبر، والنبوات والمعاد، ومن ثم يدرك الأشياء والأحداث في هذا العالم، ويفهمها من منظور هذا الإيمان، ويلبّون تفكيره بهذا المنظور، وذلك في مقابل التفكير المادي الذي يدرك العالم بصفته المادية التي تحكمها قوانين طبيعية، ويفهم ظواهر التفكير والإدراك عند البشر بوصفها ردّ فعل فيزيائي- كيميائي تقوم بها الخلايا العصبية في الدماغ.<sup>3</sup> وبطبيعة الحال فإنّ ثمة تفاصيل وأنواعاً من التفكير الديني والتفكير المادي يمكن للمهتم بالموضوع أن يجدها في المراجع المتخصصة.

ومنها مدخل المجالات المعرفية المتخصصة، وفيه نميّز التفكير في العلوم المتخصصة، مثل التفكير الاقتصادي<sup>4</sup> والتفكير السياسي<sup>5</sup>، والتفكير التاريخي<sup>6</sup>، والتفكير الفلسفي<sup>7</sup>، وهذا يعني في الأساس، الطريقة التي يفكر فيها عالم الاقتصاد في موضوعات الاقتصاد، ويفكر فيها عالم السياسة في موضوعات السياسة، ويفكر عالم التاريخ أو المؤرخ في موضوعات التاريخ، ويفكر الفيلسوف أو المتخصص في علم الفلسفة في موضوعات

<sup>3</sup> أشرنا في بعض ما صدر لنا إلى عدد من المراجع من التراث الإسلامي، وإلى مراجع حديثة ومعاصرة، نتحدث عن الفكر والتفكير من المنظور الإسلامي. انظر:

- ملكاوي، فتحى حسن. البناء الفكري: مفهومه ومستوياته وخرائطه، عمان، الأردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 2018م.

<sup>4</sup> بيتكي، بيتر، وبريشينكو، ديفيد. طريقة التفكير الاقتصادية. ترجمة: ليندا الحديد، مراجعة: فادي حدادين، عمان: الأهلية، 2008م.

<sup>5</sup> ديليو، ستيفن. التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني، ترجمة: ربيع وهبة، الاسكندرية: منشورات مكتبة الاسكندرية، 2000م.

<sup>6</sup> Wineburg, Sam. *Historical Thinking: and the Other Unnatural Acts: Charting the Future of Teaching the Past*. Temple University Press, 2001.

تعليم التاريخ عند المؤلف ليس خليطاً من الحقائق والتواريخ والشخصيات، وإنما هو طريق في المعرفة ومنهج يمكن الدارس له من فهم العلاقات بين الناس والأحداث في الماضي، وهو من ثم أساس للتفكير التاريخي.

<sup>7</sup> Sweetman, Brendan (Editor). *Philosophical Thinking and the Religious Context* Bloomsbury Academic, 1 edition (October 24, 2013).

في الكتاب مناقشات متعمقة حول الرؤية الفلسفية للتفكير الديني والتفكير العلماني المادي في مذاهبه المختلفة، ويعرض نماذج متعددة من التفكير الفلسفي في القديم والحديث الذي يحاول فهم التفكير الديني، ويقدم بدائل مادية ذات علاقة بعلم الإنسان وتطور وجوده البيولوجي والعقلي.

ذلك العلم، وهكذا. ومن المفروض أن ينعكس ذلك على الطريقة التي يلزم اعتمادها في تدريس هذه الموضوعات في المؤسسات التعليمية.

ويمثل المدخل الفلسفي واحداً من أقدم المداخل، فقد انشغل الفلاسفة منذ القدم بالبحث في طريقة عمل العقل البشري في تكوين الأفكار، للكشف عن الحقيقة أو البرهنة عليها. وقد استخدم مصطلح "المنهج" في التمييز بين تلك الطرق المختلفة، ومن ثم جاء الكلام عن أنواع المناهج. وتذهب مراجع المدخل الفلسفي مذاهب شتى في التمييز بين هذه المناهج، وإطلاق التسميات عليها، ونكتفي في هذا المقام بطريقة عبد الرحمن بدوي في تحديده لهذه الأنواع، وهي عنده: المنهج الاستدلالي، والمنهج التجريبي، والمنهج الاسترادادي-التاريخي، والمنهج الجدلي.<sup>8</sup>

وهناك من صنّف أنواع التفكير وفق آلية عمل الدماغ إلى تفكير سريع وتفكير بطيء، وتفكير سطحي وتفكير عميق. وتفكير عمودي وتفكير أفقي. فمن تطبيقات التفكير الأفقي مثلاً النظر في المنطق الذي يمارسه الإنسان في حالاته المختلفة، كما فعل دي بونو صاحب فكرة القبعات الست المشهورة، وميّز بين ستة أنواع من التفكير، هي التفكير الحيادي الذي يعتمد البيانات والحقائق والأرقام، والتفكير العاطفي الذي يعتمد الحدس والمشاعر، والتفكير السلبي، والتفكير الإيجابي، والتفكير الإبداعي أو الابتكاري، والتفكير الموجه للتحكم بالعمليات واتخاذ القرار.<sup>9</sup>

وتتداخل أنواع التفكير مع أنواع البحث؛ ذلك أنّ كلّ خطوة من خطوات البحث يرافقها تفكير في ضرورة هذه الخطوة وكيفية تنفيذها. كما تتداخل أنواع التفكير مع أنواع السلوك؛ ذلك أن الإنسان يمارس أعماله المختلفة بدرجات مختلفة من الوعي والتفكير. وتختلف تفاصيل أنواع التفكير باختلاف المعيار الذي يستخدم في التصنيف، فأحياناً يتم التمييز بين أنواع التفكير ضمن ثنائيات: تفكير استقرائي أو استنتاجي، وتفكير فردي أو جمعي، وتفكير ائباعي أو إبداعي، وتفكير كُلي أو جزئي، وتفكير تحليلي أو تركيب،

<sup>8</sup> بدوي، عبد الرحمن. *مناهج البحث العلمي*، الكويت: وكالة المطبوعات، ط3، 1977م، ص18-19.

<sup>9</sup> De Bono, Edward. *Lateral Thinking: Creativity Step by Step*, Harper Colophon; Reissue edition, 2015.

وتفكير تقليدي أو تجديدي، وتفكير تَبْريري أو نَقْدي، وتفكير ظَنِّي أو عِلْمِي، وتفكير خُرَافِي أو سَبِّي، إلخ.

وعندما يكون "الدين" أو المعتقد الديني معياراً لتصنيف أنواع التفكير، فإنَّ أهل ذلك المعتقد الديني يحرصون على أن يتناولوا الحديث عن التفكير من خلال الإطار المرجعي الديني أو "رؤية العالم" الدينية التي يقدمها ذلك المعتقد للمؤمنين به. ولأنَّ هناك توجهات نفسية واجتماعية واقتصادية، عند بعض من يتحدثون عن التفكير، لا تأخذ الدين بالحسبان، وربما تنظر إلى الدين بوصفه صندوقاً مغلقاً، يحجب الرؤية المنفتحة والتفكير الحر، ومن ثمَّ يدعون إلى التفكير خارج الصندوق، فإنَّ بعض المؤلفين الآخرين الذين يكتبون عن التفكير من منظور ديني، يدعُونَ في المقابل إلى التفكير داخل الصندوق؛ لأنَّهم يعتقدون أنَّ الإنسان لا يملك أن يفكر إلا من خلال إطار مرجعي أو "رؤية للعالم"، تتلَبَّسُه بِوعْيٍ منه أو دون وعي. وإذا كانت رؤية العالم الدينية هذه صندوقاً، فإنَّ من ينطلق منها ينظر إلى العالم من خلال هذا الصندوق، وعليه تأتي دعوتهم إلى التفكير داخل الصندوق، ويطوِّرون من أجل ذلك برامج تعليمية وتدريبية.<sup>10</sup>

وفي الدائرة الدينية الإسلامية ذكرنا في كتاب سابق<sup>11</sup> أمثلة كثيرة على تمثيلات التفكير الديني في التراث الإسلامي، وفي الثقافة والفكر المعاصرين. لكنَّ بعض الكتابات جعلت من تنمية التفكير الإسلامي سبيلاً إلى إصلاح الشخصية الإسلامية المعاصرة، والنهوض بالواقع المعاصر للأمة الإسلامية. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر، عبد الحميد أبو سليمان، الذي نشر كتاباً متخصصاً للحديث عن رؤية العالم الإسلامية، وكيف أنها هي التي تحدد طريقة الإدراك والفهم والتفكير عند الإنسان المسلم، وحيثما أصيبت هذه الرؤية بشيء من الغبش، فإنَّ ذلك سوف ينعكس لا محالة على طريقة التفكير التي يمارسها المسلم، وعلى الفكر الذي تُنتجُه هذه الطريقة، ومن ثم على المستوى الثقافي والحضاري للأمة الإسلامية، ودورها في ترشيد الحضارة الإنسانية، وهو الهَمُّ الأساس للمؤلف.<sup>12</sup> ومن

<sup>10</sup> Walton, Robert. *Thinking inside the Box: A Christian Perspective on Academic Disciplines*, Planters Press, 2011.

<sup>11</sup> ملكاوي، البناء الفكري: مفهومه ومستوياته وخصائصه، مرجع سابق، الفكر في المصادر الإسلامية، ص22-69.

<sup>12</sup> أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. الرؤية الكونية الحضارية الإسلامية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني. القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار السلام، 2009م.

هؤلاء كذلك عبد الكريم بكار، الذي نشر مجموعة من الكتب المتخصصة التي أعمل فيه الرؤية الإسلامية في عرض قضايا التفكير وأنواع التفكير، وطرق تنمية التفكير.<sup>13</sup> ومنهم كذلك عدنان النحوي، الذي نشر مجموعة من الأعمال الفكرية والأدبية والدعوية، التي تستهدف تكريس التفكير الإيماني، ثم نشر كتاباً متخصصاً في هذا النوع من التفكير.<sup>14</sup>

وسبق أن اجتهدنا في التمييز بين كل من منهجية التفكير ومنهجية البحث ومنهجية السلوك، في الرؤية الإسلامية،<sup>15</sup> فاقترحنا وجود أنواع التفكير ينبغي أن يتّصف كل منها بعدد من الخصائص التي تتكامل فيما بينها، منها على سبيل المثال لا الحصر، أن التفكير وفق هذه الرؤية هو:

- تفكير مقاصدي: يحقق الفهم والاستيعاب للنص في ضوء حكمة نزوله، ولعلاقة النص بالواقع في ضوء الرؤية المقاصدية.
- وتفكير كُليّ: يوظّف الرؤية الكونية الشاملة، ويُسكّن المسائل الجزئية في مواقعها المناسبة، وبأقذارها المناسبة، زماناً ومكاناً وحالاً.
- وتفكير سنّي: يربط وقوع الأحداث، وظهور النتائج، وتحليلات الظواهر بأسبابها.
- تفكير نقدي: يحدد العناصر المكونة للموضوع، ويزنّها بالميزان المناسب ويقدر قيمتها، فيميّز بين العناصر الإيجابية والسلبية.
- وتفكير عملي: ينظر في الأمر من حيث علاقته بالواقع، ويبحث عن البدائل الممكنة و"السيناريوهات" التي يمكن تصورها لحل المشكلات الراهنة.
- وتفكير استراتيجي استشرافي لبناء المستقبل وتحقيق النهوض الحضاري للأمة، ويتصف بالإيجابية والتفائل.
- ... إلخ.

<sup>13</sup> بكار، عبد الكريم. تكوين المفكر، دمشق: دار المعراج، دار وحي القلم، 2010م.

<sup>14</sup> النحوي، عدنان رضا. النهج الإيماني للتفكير، الرياض: دار النحوي للنشر والتوزيع، ط1، 1421هـ/2001م.

<sup>15</sup> ملكاوي، فتحي حسن. منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية، عمان/الأردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 2016م، ص173.

وقد عرفت الكتابات عن التفكير مصطلحات متعددة، حيث يركز كل مصطلح عادة على خاصية محددة، من أجل لفت الانتباه إليها وإبراز أهميتها: مثل التفكير داخل الصندوق، والتفكير خارج الصندوق، والتفكير النقدي، والتفكير العملي،... إلخ.

وربما يتداخل الحديث عن أنواع التفكير مع الحديث عن أنواع البحث، فما البحث في نهاية المطاف إلا جهداً من التفكير الهادف الجاد المنظم، يبذله الباحث في سؤالٍ من أجل الإجابة عنه، أو مشكلة من أجل حلّها. ويكون التفكير في البحث في هذه الحالة تفكيراً في مواصفات الواقع الذي يطرح السؤال عنه، وتشخيص حالته، بما يلزم من بيانات كمية أو كيفية، وتحديد الحالة التي نريد أن ننقل ذلك الواقع إليها، والأسلوب أو الأساليب التي يمكن بها حصول هذا الانتقال... إلخ. فالأمر هو تفكير في التخطيط للبحث، وتفكير في تنفيذ الخطة الموضوعه، وتفكير في تقويم نتائج التنفيذ... إلخ. لكن منهج التفكير يرتبط بالبعد النظري- المعرفي، ومنهج البحث يختص بالبعد العملي- الإجرائي.

ومثل هذا التداخل يمكن ملاحظته بين أنواع التفكير وأنواع السلوك، فالسلوك أو العمل أو الفعل، إنما يبدأ بالخواطر والأفكار التي توجب التصورات، وهذه تدعو إلى الإرادات، التي تقضي بوقوع الفعل، الذي يصبح عادة بتكراره.<sup>16</sup> ونحن نستطرد قليلاً، في هذا البحث، في الحديث عن أنواع التفكير، دون أنواع البحث، ودون أنواع السلوك والممارسة.

### ثانياً: التفكير: مناهج وأنواع وأساليب ومهارات واستراتيجيات ...

تستخدم الكتب المتخصصة في التفكير أو البحث مصطلحات متعددة لوصف التفكير، ومن هذه المصطلحات: مناهج، وطرق، وأنواع، وأساليب، وأنماط، ومهارات، واستراتيجيات ... إلخ. لكن معظم هذه الكتب خلطت دلالات هذه المصطلحات إلى

<sup>16</sup> ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي. الفوائد، بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1393هـ/1973م، ص228.

الحَدّ الذي يصعب فكّ الاشتباك بينها. ومع أن لكل واحد من هذه المصطلحات دلالة محددة، تميزه عن غيره، وتحدد السياق الذي يستخدم فيه.

وقلّما نجد كتاباً يوضح دلالة هذه المصطلحات بصورة متميزة. ويبدو لنا من الاطلاع على عدد كبير من الكتب التي تتعرض لتصنيفات التفكير أن قرار تحديد عنوان الكتاب ربّما يخدم أغراضاً تجارية تسويقية أكثر ممّا يعبر عن مضامين الكتاب. وقد لاحظنا صدق ذلك على عدد من عناوين الكتب الصادرة باللغة العربية وباللغة الإنجليزية. ولن ندخل في هذا المقام في تفاصيل الاختلاف والتمايز بين المصطلحات الكثيرة التي تصف التفكير، ولكننا نتعامل معها هنا في صورة حقل دلالي مشترك، يختص بأنواع محددة من التفكير يكثر الحديث عنها، كما تكثر الحاجة إليها، بالرغم من قلة الممارسات المعروفة عنها!

إننا لا نرى المقصود من هذه الألفاظ غير الدلالة على التنوع والتعدد. لكننا لن نذهب بعيداً في تتبع أصول كل من هذه الألفاظ في اللغة والاصطلاح، وفي التطور التاريخي لدلالة اللفظ وما يدل عليه، فعادتنا في مثل هذه المقامات أن نشير إلى "وجود ملف للموضوع" له مظانّه ومراجعته التي يمكن أن يعود إليها من يحتاجها، دون أن نفتح الملف ونستغرق جهدنا في تفاصيله، ليبقى هذا الجهد متاحاً لمن يلزمه ذلك، ولتبقى ميادين البحث والتطوير والتقدم المعرفي مفتوحة على مصاريعها. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ﴾ (يوسف: 76).<sup>17</sup>

ونبدأ بمصطلح "المنهج"، الذي هو موضوع لعلم يُسمى "علم المنهجية" methodology، وهو العلم الذي يدرس المناهج في مجالات النشاط الإنساني المختلفة، لكن "مناهج التفكير" عند الإنسان هي أهم مجال من مجالات المنهجية؛ ذلك لأنّ

17 يقول ابن عاشور في تفسير هذا الجزء من الآية: "شاهد لتفاوت الناس في العِلْمِ المُؤَدَّنِ بأنّ علم الذي خلق لهم العلم لا ينحصر مداه، وأنه فوق كلّ نهاية من عِلْمِ الناس. والفوقية مجاز في شرف الحال، لأن الشرف يشبهه بالارتفاع... وظاهر تنكير "علم" أن يراد به الجنس فيعم كلّ موصوف بقوة العلم إلى أن ينتهي إلى علم الله تعالى. فعموم هذا الحكم بالنسبة إلى المخلوقات لا إشكال فيه." انظر:

- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد. تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م، ج13، تفسير الآية 76 من سورة يوسف، ص33.

التفكير أساس لما بعده من بحث أو ممارسة عملية، أو سلوك فردي أو اجتماعي، بل إنَّ التنوع في مظاهر الحياة الدنيا لدى الناس إنما يعود إلى تعدُّد وجود مناهج التفكير لديهم.

والمنهج مصطلح كثير الاستعمال، واسع الدلالات في مجالات الاستعمال، وتقع دلالاته في مستوى التجريد الفكري، ويكون أقرب إلى طرق النظر الفلسفي. ونحيل القارئ المهتم بالتوسع في بيان مفهوم المنهج وعلاقته بالمصطلحات الكثيرة الأخرى التي تشترك معه في الحقل الدلالي وتتبع تطور المفهوم واستعمالاته في التراث الإسلامي والتراث الغربي إلى مرجع وضعه المؤلف لهذا الغرض.<sup>18</sup> وثمة مراجع أخرى كثيرة بطبيعة الحال. يكفي أن نقول في هذا السياق: إنَّ منهج التفكير هو الطريقة التي يتم بها التفكير عندما تتصف هذه الطريقة بعدد من الخصائص، منها وجود مقصد محدد، نريد من عملية التفكير أن تحقِّقه، وتتم هذه العملية بصورة واضحة ومنظمة، وبخطوات مرتبة يسهل وصفها وتتبعها، فهذه مواصفات الطريقة التي تسمى منهجاً: القصد والوضوح والتنظيم. ويمكن أن نسمي منهج التفكير باسم خاص حسب المقصد، فيكون منهج التفكير نقدياً أو أبداعياً أو استقرائياً... إلخ. ويمكن أن نسمي منهج التفكير باسم خاص بحسب درجة الوضوح أو التنظيم، فيكون التفكير: علمياً أو عشوائياً أو عشياً... إلخ.

أما "نوع التفكير" Type of Thinking<sup>19</sup> فإننا لا نجد لمصطلح النوع دلالة مفهومية محددة؛ إذ يقتصر الأمر كما أشرنا من قبل على إثبات التنوع والتعدد، فالمناهج أنواع، والطرق أنواع، والأساليب أنواع...، والتمييز بين الأنواع يعتمد على المعيار المستخدم في التصنيف. ومن المهم عندما نحدد أنواع أية فئة من فئات التصنيف، أن تكون هذه الأنواع متكافئة في المفهوم الذي يشير إلى معيار التصنيف، وفي مستوى الدلالة الذي يشير إليه كل نوع. فلا يكون أحد الأنواع مثلاً مما يصلح أن يكون منهجاً ونوعاً آخر مما يصلح أن يكون أسلوباً من أساليب المنهج، كأن نقول: إن النوع الأول من التفكير هو التفكير الفلسفي، والنوع الثاني من التفكير هو التفكير بالعصف الذهني.

<sup>18</sup> ملكاوي، منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية، مرجع سابق، ص 59-112.

<sup>19</sup> انظر مثلاً على استعمال نوع التفكير في المنحى النفسى في عنوان كتاب وعناوين فصوله:

- Robertson, S. Ian. Types of Thinking (Psychology Focus). 1st Edition, Routledge, 1999.

فالتفكير الفلسفي أقرب إلى أن يكون منهجاً في التنظير، بينما العصف الذهني أقرب إلى أن يكون أسلوباً في التنفيذ.

وقد نجد "أنواع التفكير"، عنواناً لكتاب من الكتب، ونتوقع أن تأخذ فصول هذا الكتاب عناوين لأنواع متكافئة في المعيار المستخدم في التصنيف والتعداد. ومع ذلك فإننا سوف نجد الكتاب يتحدث عما يُعدّ منهجاً أو طريقة، أو نوعاً أو أسلوباً أو مهارة، إلخ. وربما نجد في الكتاب الواحد تعبيرات تستخدم مصطلحين أو أكثر بصورة مترادفة، ثم تستخدم أحد المصطلحات بدلالة مميزة، تجعله نوعاً من أفراد المصطلح الآخر. فالتفكير المنطقي نوعٌ من التفكير، والتفكير الاستقرائي نوع آخر، مع أنه نوع من أنواع التفكير المنطقي. ومع أن المؤلف يكون قد أفرد فصلاً كاملاً عن التفكير الناقد، فإنه عندما يتناول التفكير المنطقي بوصفه نوعاً من أنواع التفكير، يقرر أن التفكير المنطقي هو قلب التفكير الناقد. ومع أن "حل المشكلات" هو هدفٌ من أهداف التفكير والتعليم، فإن هذا الهدف يُعرض بوصفه طريقة تفكير. ومع أن التعليم الفعال هو نوع من أنواع التعليم، فإننا قد نجد في الكتاب نوعاً من التفكير. وهكذا.<sup>20</sup>

ويستخدم مصطلح نمط التفكير، (thinking style) للدلالة على أنواع التفكير، وهناك من صنّف أنماط التفكير في ثلاثة عشر نمطاً، موزعة في خمس فئات، كل فئة تعبر عن معيار من معايير التصنيف، فهناك مثلاً ثلاثة أنماط تختص بوظيفة التفكير، وهي التشريع، والتنفيذ، والقضاء؛ وأربعة أنماط تختص بفئة أشكال التفكير، وهي الملكية، والهرمية، والتُّحْبُوية، والفوضوية؛ ونمطان للتفكير بحسب كلٍّ من مستويي التفكير: العالمي والمحلي، ومدى التفكير: داخلي وخارجي، وتعلم التفكير: المتحرر والمحافظة.<sup>21</sup> ومن الباحثين من ربط بين أنماط التفكير وأنماط الشخصية الإنسانية،<sup>22</sup> إلخ، ولذلك فكثيراً ما

<sup>20</sup> الحارثي، إبراهيم مسلم. أنواع التفكير، الرياض: دار المقاصد للنشر والتوزيع والروابط العالمية للنشر والتوزيع، 2009م.

<sup>21</sup> Sternberg, Robert J. *Thinking Styles*, Cambridge University Press, Reprint 2003.

<sup>22</sup> Murat, Balkis and Bayesid, Gulnur. "The relationship between thinking styles and personality types", *Social Behavior and Personality: an International Journal*, Volume 33, Number 3, 2005 , pp. 283-294.

يُستخدم مصطلح نمط التفكير للإشارة إلى عنصر من عناصر شخصية الفرد في كيفية تفكيره، وهو أمرٌ ربما يلاحظ بسهولة، ويسهل أن يطلق عليه مثلاً وصف: تفكير عميق أو معقد أو ساذج أو بسيط، وقد يتعدّر وصفه بصورة دقيقة. وعلى كل حال فإننا لا نجد لمصطلح النمط دلالة تزيد على مصطلح النوع، فالمقصود هو التنوع والتعدد لا غير.

ويستخدم مصطلح "أسلوب التفكير" عندما نتحدث عن الإجراءات الذهنية، أو العملية، التي يقوم بها المفكر ضمن أيّ نوع من أنواع التفكير، فمثلاً عندما يكون التفكير بوضع البدائل لسؤال: "ماذا لو؟" أو التفكير بما لم يفكر به الآخرون، أو تطوير الأفكار النقدية المنشودة من خلال أسلوب جلسة العصف الذهني، أو استخدام الأدوات والتقنيات المناسبة مثل الملاحظة، والتجربة، والقياس، والتحليل الإحصائي... إلخ. فكلّ هذه أمثلة على أساليب يمكن استعمالها مهما كان نوع التفكير، ومهما كان هدفه.

ويتأرجح استخدام مصطلح "استراتيجيات التفكير" بين طرفين متقابلين تماماً، الطرف الأول يشير إلى درجة عالية من العموم، عندما يكون السياق هو التخطيط على المدى المتوسط والبعيد، فيقتضي التفكير الاستراتيجي وضع خطة عامة متوسطة المدى أو بعيدة المدى للوصول، وتكون الاستراتيجية هي الكيفية التي يلزم سلوكها لتحقيق الهدف المحدد في الخطة، أو للانتقال من الواقع القائم إلى الطموح المنشود، ويكون ذلك عند التفكير في برامج التنمية الاقتصادية أو التحول الاجتماعي. وفي هذه الحالة تكون الاستراتيجية أوسع دلالة من أيّ من المصطلحات الأخرى، مثل طريقة التفكير، أو نوع التفكير، أو أسلوب التفكير... إلخ.

أما الطرف الثاني من الدلالة فهو دلالة ضيّقة تقتصر على الكيفية التي يقوم بها فيها الفرد بعمل محدود في الزمان والمكان، هي أشبه بخطوة من خطوات خطة ممتدة، ففي لحظة من لحظات لعبة كرة القدم، يفكر الفريق في تغيير استراتيجيته في اللعب لغرض محدد، وتفكر إدارة المحل التجاري في تغيير استراتيجيتها في جلب الزبائن لفترة محددة، ويفكر المعلم في تغيير استراتيجية الدرس لزيادة النسبة المثوية للوقت المخصص لكلام الطلبة في غرفة الصف، على حساب الوقت المخصّص لكلام المدرس. ومرحلة التفكير في

وضع هذه الاستراتيجية تسبق بطبيعة الحال مرحلة تنفيذها. وقد نشأ مصطلح الاستراتيجية Strategy أساساً في مجالات المعرفة العسكرية، ليشير إلى الخطة الكلية لمواجهة العدو بكل ما فيها من عناصر وحسابات، ونشأ معه مصطلح مُكَمِّلٌ له هو التكتيك tactic، الذي يشير إلى التحركات الجزئية والعمليات المرحلية التي ربما تخفي ملامح الاستراتيجية العامة. وبذلك تكون عمليات التكتيك عناصر في الخطة الاستراتيجية. لكننا لاحظنا أن الاستراتيجية تستخدم أحياناً بدلالة التكتيك لا سيما في مجال التعليم والتسويق وبعض المنافسات الرياضية.

أما "مهارات التفكير" فهي أيضاً تعبير عن الكيفية التي يتم بها هذا التفكير، وما يتضمنه التفكير من عناصر تتفاوت في بساطتها وتعقيدها. وإذا كان التفكير هو في الجمل عملية عقلية، فإنَّ هذه العملية الكلية تتحقق في العقل من خلال عمليات جزئية أو فرعية، تؤدي كلٌّ منها وظيفة محددة، فتذكر المعلومة التي تُعطى، أو استدعاء المعلومة التي أعطيت من قبل، والربط بين المعلومات، وتصنيف المعلومات، وصياغة السؤال الذي يعبر عن المشكلة، وتحديد نوع البيانات المناسبة للإجابة عن السؤال، وتحليل الموقف المشكل لبيان عناصره، وتركيب الإجابات الفرعية لبناء فهم كلي، والحكم على مدى ملاءمة الحل المقترح للمشكلة... كل ذلك أمثلة على مهارات جزئية، يحتاج الفرد إليها، أو إلى بعضها للتفكير المناسب.

ويميز الباحثون بطرق مختلفة بين مستويات البساطة أو التعقيد التي تقع فيها مهارات التفكير، ومن هذه الطرق التمييز بين مهارات معرفية Cognitive Thinking Skills ومهارات فوق معرفية Meta-Cognitive Thinking Skills. فالمهارات المعرفية هي من قبيل: الملاحظة اللازمة لتمييز العناصر ذات العلاقة بالموقف، وتذكر المعطيات السابقة، وتنظيم البيانات، وتصنيف المعلومات، وتحليل الموقف إلى عناصره، والربط بين العناصر لترتيب تصور جديد للموقف،... إلخ. أما المهارات فوق المعرفية فتتصف بأنها أكثر تركيباً وتعقيداً وتحتاج إلى جهد عقلي أعلى مما يبذل في النوع الأول من المهارات،

وربما توصف بأنها قدرة على التفكير في التفكير نفسه؛ بمعنى أنّ الشخص وهو يُفكّر يكون على وعي كامل لمجرى تفكيره وتفكير غيره في الموضوع. وهذا يعني كذلك أنّ الفرد وهو يفكر في الموضوع يسلك وفق خطة محددة للتفكير، ويحتفظ بالتحكم والسيطرة على مراحل التفكير وتوجيهه وفق الخطة وما تتطلبه من مرونة، ويكون في الوقت نفسه قادراً على تقييم مدى نجاح الخطة في تحقيق الهدف المنشود. فالتخطيط والتحكم والتقييم ثلاثة عناصر رئيسة في مفهوم المهارات فوق المعرفية.<sup>23</sup>

وبطبيعة الحال نحن نتحدث هنا عن مهارات التفكير، ولكن حياة الإنسان تتطلب أنواعاً أخرى من المهارات التي لا بد من أن يكتسبها عند التنفيذ العملي لما يُفكّر فيه، ومن ذلك المهارات العملية أو مهارات التناول العملي *manipulative skills* التي تتآزر وتتكامل مع مهارات التفكير، فمهارات التوازن والتآزر في عمل الحواس واستعمال الأدوات، ومهارات اللغة الأربع: الاستماع والتكلم والقراءة والكتابة، كلّ ذلك مهارات مهمة في التفكير، وفي تنفيذ خطط التفكير، ومن ثم تعود بالفائدة على جودة التفكير نفسه، وبناء نمط الشخصية الخاص بالفرد.

واضح أنّ دلالات كل مصطلح ترتبط بالمجال المعرفي العام، أو بفرع من فروع ذلك المجال: التربية، علم النفس، التسويق، كرة القدم... إلخ، كما ترتبط بالسياق الذي يرد المصطلح: التخطيط، التنفيذ، التقييم.

<sup>23</sup> Buoncristiani, Martin and Buoncristiani, Patricia. *Developing Mindful Students, Skillful Thinkers, Thoughtful Schools*, Corwin, 2012, pp. 37-47.

انظر أيضاً:

- جروان، فتحي. *تعليم التفكير*، العين، الإمارات: دار الكتاب الجامعي، 1999م، ص 42-51.
- بشارة، موفق. "أثر برنامج تدريبي لمهارات التفكير عالي الرتبة في تنمية التفكير الناقد والإبداعي لدى طلاب الصف العاشر"، (أطروحة دكتوراه، جامعة اليرموك/الأردن، 2003م).
- الشريدة، محمد. "أثر برنامج تدريبي فوق معرفي في تنمية التفكير الناقد"، (أطروحة دكتوراه، جامعة اليرموك/الأردن، 2003م).
- الجراح، عبد الناصر. "أثر برنامج تدريبي فوق معرفي في تنمية التفكير فوق الأخلاقي والسلوك الأخلاقي"، (أطروحة دكتوراه، جامعة اليرموك/الأردن، 2003م).

## ثالثاً: أمثلة على أنواع التفكير

لو أردنا أن نُعدَّ قائمة لما قد نجده في الكتب والمراجع عن أنواع التفكير بقطع النظر عن الأسماء التي تعطى لهذه الأنواع: مناهج، وطرق، وأساليب، ومهارات، واستراتيجيات، فرما يصل عدد أفراد هذه القائمة إلى ما يزيد عن الخمسين نوعاً. وسيكون من المتعذر أن نتحدث عن كلِّ ما سوف نجده. وربما نجد تداخلاً كبيراً بين العناوين أو الأسماء والمصطلحات التي تطلق على هذه الأنواع. وفي ضوء ما عرضنا في السابق حول طرق تصنيف التفكير، فإننا سوف نختار أمثلة على أنواع التفكير من ثلاثة مستويات: الأول: هو المستوى الفلسفي - النظري المجرد. والثاني: هو مستوى الوظائف والأهداف التي يسعى التفكير إلى تحقيقها. والثالث: مستوى إجراءات التفكير وعملياته. وربما يخدم هذا المدخل في بناء إطار مرجعي لتناول أنواع التفكير بصورة يسهل فهمها، ويسهل وضع الأنواع المختلفة في مواقع متكافئة في كلِّ فئة من فئات هذه الأنواع.

### 1. التفكير الفلسفي:

وقد يكون من المناسب أن نشير إلى نوع التفكير الذي يصف آلية عمل العقل الإنساني في الوصول إلى الحقيقة في أيِّ موضوع، وفي أيِّ علم من العلوم، وهو يمثِّل التفكير الإنساني المشترك. وعندما يقوم العالم المتخصص في علم من العلوم بعمله فإنه يمارس هذا المنهج المشترك، ويمارس بالإضافة إليه منهجاً فرعياً تقتضيه خصوصية ذلك العلم. ويميز بعض الباحثين في هذا المجال بين هذين المستويين بمصطلح خاص لكلِّ منهما، الأول هو المستوى العام المشترك للتفكير، وهو المستوى المنهجي المعرفي أو "الإبستمولوجي"، ويتصل بفلسفة ذلك العلم، والمستوى الثاني هو المستوى المنهجي المتخصص "الميثودولوجي"، ويتصل بطرق التفكير والبحث الخاصة بذلك العلم (علم الفيزياء، وعلم الاجتماع، وعلم الطب...).<sup>24</sup>

<sup>24</sup> شيا، محمد. مناهج التفكير وقواعد البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (مجد)، 2007م.

إنَّ العالم المتخصص في علم من العلوم وهو يمارس أنواع التفكير والبحث في علمه قد "لا يستطيع أن يتبين الروابط الجامعة بين الميادين المختلفة للعلم، مع أنَّها تتشابك في مناهجها بالضرورة، نظراً لوحدة العقل الإنساني، إلى حدِّ كبير على الأقل، فلا بدَّ إذاً من أن يأتي شخصٌ غير متخصص في علمٍ واحد بالذات، ويحاول باستقراءه للمناهج التي أتبعها العلماء المختلفون في ميادينهم المختلفة، أن يستخلص النماذج العامة للمناهج العلمية، وأن ينحو نحوَ شَيْءٍ من التعميم، حتى يضع صورةً إجمالية عامة للكيفيات التي يتبعها العقل الإنساني في تحصيله للحقيقة في العلوم، وهذا الشخص، في رأي عبد الرحمن بدوي، هو المنطقي (المتخصص في المنطق)؛ إذ هو وحدَه القادر على الجمع بين مختلف الميادين في نظرة واحدة شاملة، تهيئ له أن يدرك الملامح العامة والخصائص الكلية المشتركة بين المناهج المتبعة في فروع العلم المتعددة.<sup>25</sup>

وقد كان من مهام الفلاسفة منذ القدم الكشف عن الطرق العامة التي يسلكها العقل البشري في سعيه للوصول إلى الحقيقة في أيِّ موضوع من موضوعاتها. وقد ذهب الباحثون في تحديد هذه الطرق وفي تصنيفها وتسميتها مذاهب شتى، لا يتسع المقام لعرضها ومناقشتها. ونكتفي بالإشارة إلى ثلاثة مناهج فلسفية، تكاد تكون موضع إجماع بين الباحثين في التفكير الفلسفي، وهي: المنهج الاستنباطي، والمنهج الاستقرائي، والمنهج الفرضي.

ويتصف التفكير الفلسفي عادة بقدر من التجريد؛ إذ ينتقل بالتفكير في الموضوعات العينية القائمة في الواقع؛ زماناً ومكاناً وحالاً، إلى التصورات التجريدية، التي تدخل عالم النظريات والمفاهيم والأفكار، وتحاول بيان الأصول الفكرية المجردة للموضوعات العينية. ويتصف التفكير الفلسفي كذلك بالرؤية الكلية للموضوع، ويُعْمِلُ رؤيةَ العالم التي يتبناها الفيلسوف، من خلال طرح الأسئلة الموجودة حول الأصل والمصير والإنسان والحياة، وعلاقة موضوع البحث بذلك كلّه. كما يتّصف التفكير الفلسفي بروح المساءلة والنقد مُعْمِلاً مبدأ الشك المنهجي، الذي يمارسه الفيلسوف في سعيه للوصول إلى اليقين.

<sup>25</sup> بدوي، مناهج البحث العلمي، مرجع سابق، ص 9-10.

والتفكير الفلسفي في مجمله يعتمد على مجموعة من القواعد العقلية، التي تُسمى قواعد المنطق، وهذه القواعد هي عمليات عقلية استدلالية، ذلك أنّ "علم المنطق هو في الأصل علم الاستدلال الصائب".<sup>26</sup> ومعظم المؤلفين يذكرون نوعين متقابلين ومتكاملين من الاستدلال هما: الاستدلال الاستنباطي، والاستدلال الاستقرائي، وبعضهم يضيف نوعاً ثالثاً يسمونه الاستدلال التمثيلي. وكثير من عمليات التفكير الاستقرائي أو الاستنباطي، تدخل في أنواع مختلفة من التفكير.

## 2. التفكير النقدي والتفكير الإبداعي والتفكير الاستشراقي:

هذه ثلاثة أنواع من التفكير، يرد الحديث عنها كثيراً، ويمكن أن ننظر إليها بوصفها طرقاً للوصول إلى أهداف محددة، ذلك أن التفكير النقدي يقوّم الأفكار والأشياء والأشخاص، من أجل التوظيف المناسب لها، وتحديد أوجه الإصلاح والتغيير التي قد تلزم. ويتّجه التفكير الإبداعي إلى إنتاج أفكار جديدة، غير مألوفة، تُسهم في حل مشكلة قائمة، أما التفكير الاستشراقي فيسعى إلى فهم اتجاه الأحداث ومآلاتها المتوقعة في الزمن القادم القريب أو البعيد، ليدعم الإيجابي منها ويستثمره، ويتعامل مع السلبي منها ويتقي مخاطره، وفي الحالتين يُعدُّ الخطة المناسبة للتعامل مع الموقف المتوقع، أو صنع الموقف المنشود.

ونعرض فيما يأتي معالجة موجزةً لهذه الأنواع الثلاثة من التفكير، وبيان ما يتميز به كلٌّ منهم عن غيره، والإشارة كذلك إلى موقع هذا المنهج في الرؤية الإسلامية.

### أ. تفكير نقدي:

قلنا: إنّ التفكير النقدي يحدد العناصر المكونة للموضوع، ويبرّرها بالميزان المناسب ويقدر قيمتها، فيميّز بين العناصر الإيجابية والسلبية. وقد تكون هذه العناصر أفكاراً بعضها حيّ، وبعضها ميّت، وبعضها مميت. إنّ رفض القبول بالأمر الواقع في المجتمع نظراً

<sup>26</sup> جروان، تعليم التفكير، مرجع سابق، ص342. وقد تضمن هذا المرجع فصلاً مطولاً بعنوان: مهارات الاستدلال، (ص335-378)؛ لأنّ الكتاب في مجمله اعتمد في بنينه على تعليم مهارات التفكير، وسميت الفصول على هذه الأساس.

لكثير من جوانب العجز والتخلف فيه، لا يعني بالضرورة هدم كيان المجتمع، والثورة على كل ما عرفه المجتمع من أفكار وممارسات، وقيم وعادات، فثمة مقومات تعطي للمجتمع هويته المتميزة من التاريخ والجغرافيا، والأفكار والمعتقدات، والعلاقات والمصالح؛ إذ يؤكد التفكير النقدي قيمتها وضرورة المحافظة عليها وتعزيز مكانتها، فيكون المطلوب من التفكير النقدي هو تشخيص العناصر والعوامل التي تسبب المرض والضعف والتخلف، وتحديد كيفية معالجتها.

وقد تكون العناصر المكونة للموضوع الذي يقع عليه التفكير النقدي أنظمة مستقرة، أصبحت مألوفة ومقبولة على علاقتها، مع أن فيها ما يعد سبباً في مشكلات كثيرة. وقد تكون هذه العناصر ممارسات جرى بها العرف والعادة، مع أن هذه الممارسات أصبحت تعبيراً عن العجز والتخلف والجمود. فالتفكير النقدي هو الذي يحدد جودة الفكرة الجديدة ويوصي بالتنويه بصاحبها ومكافأته، وبتوظيف الفكرة نفسها في تطوير الواقع. والتفكير النقدي هو الذي يميز الإنجاز الجيد، ويقدمه مثلاً يُتذى لما نريده دائماً من إنجازات متميزة.

وقد لا يسهل تمييز الجوانب الإيجابية والسلبية في أي فكرة أو ممارسة إلا بعد ممارسة التفكير الذي يتسلح بخبرات كافية، تمكنه من إحسان التمييز. فالمفكر الناقد يطلع على ما هو معروف ومألوف في مجتمعه، وما يصل إلى علمه عن مجتمعات أخرى، فتكون المقارنة أساساً للتمايز والتفاضل. وقد تكون القدرة النقدية نتيجة للتفكير السببي، فيدرك المفكر ما آلت إليه الأسباب من عواقب، وما قادت إليها المقدمات من نتائج. وقد تكون هذه القدرة على التفكير النقدي نتيجة تمييز متطلبات العصر ومستجداته، في ضوء اختلافها عن خبرة الماضي وتجربته، وفي ضوء ترشيد السعي إلى المستقبل وآماله.

وقد تتمركز القدرة على التفكير النقدي على وزن الأفكار والأشياء والأشخاص في ضوء ثلاثة معايير: ما تفرضه عليها ثقافتنا وعقائدنا، وما نمتلكه من طاقات وإمكانات، وما أنجزه غيرنا من إنجازات، فالتكامل بين هذه المعايير الثلاثة هي المعادلة التي تضبط تمييزنا لما هو واقع، ولما يمكن أن يكون عليه هذا الواقع، وما ينبغي أن يكون عليه.

إن قيمة التفكير النقدي ليس في الحديث عن وجود كثير من الخلل والضعف الذي ربّما يشعر به الجميع، وليس في تعميم الحكم على واقع الفساد والمفسدين بصورة قد تصيب المخطئ والبريء، ولا في اتصال الشكوى والتبرم والهجاء من الفارق بين ما في بلدنا وما في بلدان أخرى. إن التفكير النقدي يكون له قيمته عندما يتحدث صاحبه عن مسألة محددة، فيبين الخطأ والصواب ويبين كيف يعالج الخطأ ويحقق الصواب، ويكون بذلك قد أسهم في الاهتمام بالشأن العام بطريقة إصلاحية. فلا بدّ إذاً من التمييز بين التفكير النقدي والحديث النقدي، ذلك أن التفكير النقدي في الأساس جهد ذهني تصاحبه خواطر وأفكار إيجابية إصلاحية، ويمارس فيه المفكر قدرًا من الحرية في النظر والتدبر والموازنة والمقارنة، ويتحقق لديه نتيجة لذلك مستوى من الفهم والإدراك للموضوع، لا يتحقق لمن ينظر إلى الموضوع ويتحدّث عنه بطريقة عادية مألوفة قد تعبر عن اتجاه سلبي، وتصاحبها الشكوى وروح الإحباط.

والتفكير النقدي لا يكون بالضرورة عملاً قائماً بذاته، فالذي ينظر في رسوم وألوان على لوحة معينة، يمكنه أن يفكر فيما يرى تفكيراً نقدياً، ويبني عناصر من الحكم على ما يراه فيها من دلالات إيجابية ومكونات جمالية، وربّما يجد فيها ما يحكم به على طرق التعبير عن الأفكار في اللوحة، ومن تتأسّق الألوان أو عدم تتأسّقها، وملاءمة الخطوط أو عدم ملاءمتها، وتتأسّب الأبعاد أو عدم تناسبها... إلخ. والذي يقرأ نصاً مكتوباً ربّما يميز فيه الموضوع ظاهراً في كلماته، أو مستتراً بين سطوره، ويدرك جودة الكتابة دون أخطاء، ونوع الأخطاء إن وجدت، وصور البلاغة والبيان، وما احتوى عليه النص من استعارة ومجاز وتمثيل... أليس هذا هو ما يعرف بالنقد الأدبي؟! والذي يقرأ تقريراً فيه من البيانات الرقمية والإحصائيات ما يعطي دلالة واضحة عن الموضوع أفضل بكثير من الكلمات، وربّما يجد فيها من التناقض بين الأرقام ما لا يمكن أن يعبر عن الحقيقة. لقد قرأ ابن خلدون في تاريخ المسعودي رواية عن عدد من يطبق حمل السلاح من بني إسرائيل عند خروجهم من مصر، فرفض الرواية؛ لأنّها لا يمكن أن تعبر عن حقيقة الأعداد التي يمكن أن تكون موجودة في عدد الأجيال التي مرت من عهد يعقوب عليه السلام

إلى عهد موسى عليه السلام.<sup>27</sup> ورفض ابن خلدون رواية أوردتها المسعودي عن قصة نزول الإسكندر إلى قاع البحر، ليصور الدواب الشيطانية التي منعه من بناء مدينة الإسكندرية، ورفض رواية الاجتماع السنوي لطيور الزراير إلى روما حاملة الزيتون، ورفض قصة مدينة النحاس في صحراء سلجماسة...<sup>28</sup> وكان ذلك كله قراءة نقدية في أفكار ومعلومات مدونة في كتب التاريخ، وما أكثر ما في كتب التاريخ من أخطاء وأكاذيب يمكن أن تكون موضوعات للتفكير النقدي والقراءة النقدية!

إننا نجد نماذج من التفكير النقدي الراقي في أول علم من علوم الإسلام تشكلاً، وهو علم الحديث؛ إذ خضعت الأحاديث التي تم تدوينها في أثناء مرحلة الجمع والتدوين، وما بعد ذلك إلى هذا العصر، إلى صور من النقد المنهجي، مارس فيها المحذثون نقد المتن ونقد السند على قواعد وضوابط وأسس وقوانين لم تعرفها أمة من الأمم غير الأمة الإسلامية.<sup>29</sup>

لكن النقد لا يقف عند نقد الأشياء والأفكار والنصوص عند الآخرين، وإنما يتضمن كذلك نقد وعي الفرد على أفكاره وممارساته، فيمارس عليها نقداً ذاتياً، ربما يقيه من مسالك الفشل في الدنيا، والهلاك في الآخرة. لقد حَقَلت مصادر الثقافة الإسلامية بكثير من الحديث عن محاسبة النفس، سواءً في القرآن الكريم، أو في السنة النبوية، وأقوال الصحابة والتابعين والعلماء من مختلف العصور، وهو ما نرجح أن القارئ الكريم، على ألفة كافية به.

أما التفكير النقدي الذي يُعنى بالقضايا العامة للمجتمع والأمة، فهو الذي يمكن الفرد من تمييز المعروف من المنكر، ومن ثم يمكنه من القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي أكثر القرآن الكريم من الحديث عنها، فقد جعلها أول صفةٍ لخير أمة

<sup>27</sup> ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: نخضة مصر، 1979م، ط3، ج1، ص292-294.

<sup>28</sup> المرجع السابق، ج1، ص330-332.

<sup>29</sup> يمكن توثيق هذا النص من بعض أقوال المستشرقين بشرط التوثيق من مصدر أصلي وليس ترجمة، فقد وجدنا كثيراً من النصوص المترجمة المنسوبة إلى أقوال المستشرقين ليست موجودة في نصوصهم الأصلية.

أخرجت للناس، وقدمها على صفة الإيمان، لبيان عظيم شأنها: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: 110). ومع أن هذه المهمة هي فرض كفاية، فقد قدمتها الآية الأخرى على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فقال سبحانه: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: 71).

والآيات في ذلك كثيرة، أما الأحاديث فقد ورد في الموضوع قوله ﷺ: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُعَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ".<sup>30</sup> وقوله عليه الصلاة والسلام: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ".<sup>31</sup>

## ب. التفكير الإبداعي:

من أسماء الله الحسنى اسم "البديع". وقد جاء في القرآن الكريم قوله سبحانه: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (البقرة: 117)، وقوله ﷻ: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام: 101) والبديع "فعليل للمبالغة،... واسم الفاعل مبدع،... فالله سبحانه بديع السموات والأرض؛ أي منشئها وموجدتها ومبدعها ومختترعها على غير حد ولا مثال. وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له: مبدع، ومنه أصحاب البدع. وسميت البدعة بدعة؛ لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام،... ويعضد هذا قول عمر

<sup>30</sup> مسلم، أبو الحسين مسلم ابن الحجاج النيسابوري. صحيح مسلم، عناية: بيت الأفكار، الرياض: بيت الأفكار الدولية، 1998م، كتاب: الإيمان، باب: كون النهي عن المنكر من الإيمان، حديث رقم 49، ص 51.

<sup>31</sup> الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة. جامع الترمذي، عناية: بيت الأفكار، الرياض: بيت الأفكار الدولية، 1998م، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حديث رقم 2169، ص 360، وقال: هذا حديث حسن.

ﷺ: "بِعَمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ"<sup>32</sup>، لما كانت من أفعال الخير داخلية في حيز المدح... وإن كانت في خلاف ما أمر الله به ورسوله، فهي في حيز الذم والإنكار، قال معناه الخطابي وغيره. قلت: وهو معنى قوله ﷺ في خطبته: (وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة)<sup>33</sup> يريد ما لم يوافق كتاباً أو سنةً، أو عمل الصحابة رضى الله عنهم، وقد بيّن هذا بقول: (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْءٌ)<sup>34</sup> وهذا إشارة إلى ما ابتدع من قبيح وحسن، وهو أصل هذا الباب.<sup>35</sup>

ويحلّو لبعض الناس أن يجعلوا الإبداع المحمود مقابل الاتباع المذموم. مع العلم بأنّ الحمد والذمّ يمكن أن يقع على كلّ منهما، فكما رأينا في نصّ القرطبي أنّ الابتداع يكون حسناً وقبيحاً، فكذا الاتباع، فمنه الممدوح عندما يكون اتباعاً لما أنزل الله من آيات وأحكام وشرائع، ﴿قَالَ أَهْبَطْنَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (طه: 123) ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: 16) ﴿أَتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: 106). ومن الاتباع ما هو مذموم، لأنه اتباع للهوى بغير هدى وبغير علم: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغَيِّرْ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الفصص: 50) ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (الروم: 29). وقد يكون الاتباع تقليداً للسابقين من الآباء

<sup>32</sup> مالك، أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي. موطأ الإمام مالك، رواية يحيى الليثي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مصر: دار إحياء التراث العربي، د.ت، ج1، كتاب: الصلاة في رمضان، باب: ما جاء في قيام ليل رمضان، حديث رقم 250، ص114.

<sup>33</sup> مسلم، صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، حديث رقم 867، ص335.

<sup>34</sup> المرجع السابق، كتاب: العلم، باب: من سنَّ سنةً حسنةً أو سيئةً، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، حديث رقم 2674، و1017، ص1017.

<sup>35</sup> القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لإحكام القرآن، بيروت: مناهج العرفان، د.ت، مج1، ج2، ص86-87.

والأجداد، على ضلالهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (البقرة: 170).

إن سياق حديثنا هو الإبداع فيما ينفع ويرفع، وفيما يُصلح الأمور ويحل المشكلات. ولا نتحدث على الإبداع والابتداع في مجالات الضلال والعمى. ونستمسك في الإبداع الذي نتحدث عنه، باتباع الهدى والتقوى، ممّا استقامت طريقته، وصحّت سجيّته.

فالإبداع هو ما يقوم به المبدع أو المبتكر أو المخترع. والتفكير الإبداعي نوع من التفكير يتميز بأنه يقود إلى أفكار جديدة، غير مألوفة، تُسهم في حل مشكلة قائمة، ويسمى كذلك بالتفكير الابتكاري. ويميز الباحثون فيه بين نوعين من التفكير، يحددان نوع الإبداع ومداه، هما التفكير التقاربي convergent، والتفكير التباعدى divergent. فالنوع الأول من التفكير يستهدف الوصول إلى نقطة محددة تعين في حل مشكلة محددة أو الإجابة عن سؤال محدد، وتكون فائدة هذا التفكير محصورة في الجزئية التي تتابها تلك المشكلة ويتوجه إليها ذلك السؤال. ويستهدف النوع الثاني في المقابل وضع كلّ البدائل الممكنة، لفهم موضوع المشكلة والتشعب فيها، والتنويع في زوايا النظر إليها، للكشف عن الفكرة الجديدة غير المألوفة، التي تتفوق على غيرها من الأفكار، فتكون النتيجة ليست إبداعاً في حل مشكلة محددة وحسب، وإنما يمتدّ الإبداع إلى حل مشكلات أخرى، أو منع وقوع هذه المشكلات.

والقدرة الإبداعية متوفرة لدى كلّ فرد إذا توفرت البيئة الأسرية والتعليمية والاجتماعية التي تنميها وتوجهها وتستثمرها. ويمكن للفرد أن يتعلم كثيراً من مهارات التفكير الإبداعي إذا بذل الجهد الكافي، لتطوير قدراته، وتوظيف خبراته، فالإرادة والعزيمة والإصرار عند الفرد من جهة، والبيئة التربوية الحافزة من جهة أخرى، شرطان مهمان للنجاح في تحقيق أكبر قدر من الإبداع في المجتمع. ويحسن بالفرد الذي يَعْلَمُ من نفسه استعداداً في مجال معيّن أن يتفرّغ له ويطوّر قدراته فيه، حتى يتيسّر له فعل الإبداع. لكنّ العقبات وأشكال المعاناة التي تواجه الفرد في بعض الأحيان قد تولّد لديه من روح التحدي والمواجهة ما يُمكنه من تحقيق إبداعات على غاية من الأهمية، وتذكر في هذا

السياق المقولة التي اشتهرت على ألسنة الناس، وهي أنّ "الحاجة أمّ الاختراع". فالإبداع ليس صفةً وُهبّت لفئة محددة من الناس، وُحرم الآخرون منها، وإنما يمتلك كل فرد قدرةً على تطوير القدر الذي يعتقد أنه وُهب له، كما تمتلك بعض المؤسسات من الخبرات ما توفّر بها الظروف المناسبة لنمو الأفراد في قدراتهم الإبداعية.

ولا يعنى ذلك أن المواهب الفطرية التي يعتمد عليها التفكير الإبداعي تكون متشابهة في الكم والكيف لدى جميع الناس، ولا أنّ الإبداع صفةٌ مطلقة تجعل المبدع يبدع في كلّ شيء، أو يبدع بالقدر نفسه. فثمة من يبدعون بمستويات مختلفة في مجالات اللغة حديثاً وكتابة، شعراً أو نثراً، ومن يبدعون في الرسم والتصوير والتلوين، ومن يبدعون في تطوير المعادلات الرياضية والهندسية وحلّها، ومن يبدعون في تطوير نظرية علمية، أو تفسر ظاهرة طبيعية أو اجتماعية أو اقتصادية، ومن يبدعون في توظيف النظريات في الصناعة، أو التجارة أو الزراعة أو الإدارة ... إلخ. فكلّ هذه الصور من الإبداعات وأمثالها إنّما تتحقق من إعمال العقل، وشحن الذهن، وممارسة التفكير والتذكّر والتدبّر بصورة تتصف بالتركيز والعمق والإحاطة، ويوظّف فيها الفرد ما سبق أن اكتسبه من الخبرات المتراكمة في موضوع التفكير، وتتضمن هذه الخبرات في العادة ما يتحقق للفرد من فهم الأعمال الإبداعية واستيعابها ونقدها، ثم تجاوزها للوصول إلى الفكرة المبدعة، وظهورها عملياً في الأفعال والأشياء الإبداعية.

لقد تربي على يد رسول الله ﷺ جيلٌ من الصحابة، أُتيحت لهم أحسنُ تربيةٍ، فماذا كانت نتيجة هذه التربية؟ لقد عرفنا فيهم جملة من الصفات المشتركة من الإيمان واليقين والتصديق والصبر والجهاد... ومع ذلك فقد عرفنا في كلّ واحد منهم صفة لم تُعرف عند الآخر بالدرجة نفسها، فقد ورد في الحديث قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدّهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أميناً، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح."<sup>36</sup>

<sup>36</sup> الترمذي، جامع الترمذي، مرجع سابق، كتاب: المناقب، باب: مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، حديث رقم 3791، ص 589. وقال عقبه: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

والأحاديث كثيرة في بيان فضل أفراد من الصحابة، وما تميز به كل واحد منهم عن غيره، على فضلهم رضي الله عنهم جميعاً.<sup>37</sup>

فالصفة الأساسية إذاً للتفكير الإبداعي أنها تنتج أفكاراً جديدة أصيلة غير مسبوقة، تتميز عن الأفكار السائدة المعروفة. والمبدع لا يكون مبدعاً بحق إذا اقتصر إبداعه في فكرة واحدة، جاءت في حالة استثنائية، ثم تعطلت قدرته على الإبداع، وإنما تكون صفة الإبداع لصيقة به، تتكرر معه لحظات الإبداع، لتتلبس المبدع بصورة متكررة، كلما وجد نفسه أمام مشكلة، فيحشد لها من قدراته وخبراته الإبداعية، ويكيفها بصورة تحيط بالمشكلة حتى يستوعبها ويدرك تفاصيلها، إلى أن تتهيأ له الفكرة الجديدة في حلها. فالجدة، والمرونة، والطلاقة خصائص تميز التفكير الإبداعي.

ولا يغيب عن البال أنّ مفهوم الإبداع يتقاطع إلى حد كبير مع مفهوم التجديد، فالتجديد في الرؤية الإسلامية مطلوب في كل حال، وهو تجديد في فهم النصوص، وتجديد في فهم الواقع، وتجديد في تنزيل النصوص على الواقع. فقد يفهم العالم من النص اليوم ما لم يفهمه العلماء من قبل؛ لأنّ مستجدات الحياة في الواقع وتفاعل العقل البشري مع هذه المستجدات تكشف له عن دلالات جديدة في النص غير مسبوقة، وكأنه جاء موعد تأويل ذلك النص. وهذا المعنى الجديد ليس نهاية المطاف؛ إذ تتجدد معاني النص مع تغيرات المكان والزمان والحال، حتى لتبدو معالم الدين جديدةً غريبةً كغربتها على الناس يوم أن جاءت أول مرة. وهذه المعاني الجديدة ليست بالضرورة نفيًا للمعاني التي أدركها العلماء في السابق، وإنما قد تكون توسيعاً لتلك المعاني وتدقيقاً فيها، وتمثيلاً عليها. فثمة ثوابت في دلالات النص فيما تدل عليها دلالات اللغة المباشرة، والسياق التاريخي لنزول الوحي بالنص. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى كُلِّ رَأْسٍ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُهَا دِينَهَا."<sup>38</sup> ويؤيد هذا ما رواه الترمذي وحسنه

<sup>37</sup> ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد. فضائل الصحابة، تحقيق وتخريج: وصي الله بن محمد عباس، الرياض: دار ابن الجوزي، ط1، 1999م.

<sup>38</sup> أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني. سنن أبي داود، بيروت: بيت الأفكار الدولية، ط1، 1999م، كتاب: الملاحم، باب: ما يذكر في قرن المائة، حديث رقم 4291، ص469.

عن عمرو بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً؛ فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي).<sup>39</sup>

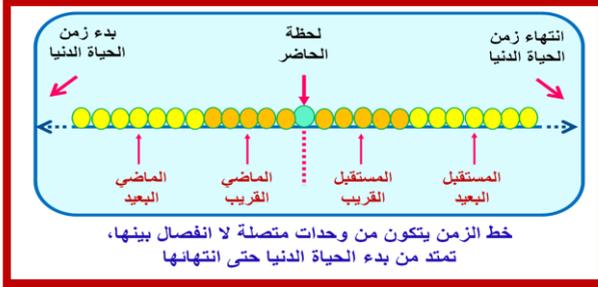
وقد كثرت برامج تعليم التفكير عموماً والتفكير الإبداعي لا سيّما في العقود الأخيرة، وأنشئت لهذه البرامج مؤسسات، ومراكز، ونُظِّمَت مؤتمرات وندوات، ودورات تدريبية على المستويات المحلية والإقليمية والعالمية. ولعل القارئ الراغب في برامج التفكير الإبداعي والمهتم بتطوير مهاراته فيه، لا يعدم أن يجد في بلده عدداً من هذه البرامج عندما يبحث عنها.

إنّ تاريخ العلم والترقي الحضاري هما سلسلة من المفاصل والمحطات ذات البعد الزمني والمكاني، وهي تعبّر عن مواقف الإبداع والابتكار والاختراع في تطور العمران البشري، وثمراته المادية والمعنوية، بما في ذلك القوانين والنظريات العلمية وتطبيقاتها في الصناعة والإدارة، وهذه الإبداعات هي نتيجة لما يقوم به البشر من جهود متتالية. وتنتفح آفاق الإبداع لمن أخذ بأسبابها مهما كان دينه وقوميته ولغته. فكلّ ذلك من عطاء الله سبحانه الذي يتفضّل به على الناس ويُمكنهم منه، وقد يكون ذلك نتيجة تلبية الدعوة التي يوجهها الله إلى الناس للسير في الأرض والنظر في آفاق الكون والتفكير في الخلق، وكلّ ذلك من نصيب العلم بالحياة الدنيا، والكسب من متاعها. ولكنّ من الإبداعات والاختراعات والابتكارات ما ينتفع به الناس، ومنه ما يكون سبباً في الخراب والدمار. هذا في الحياة الدنيا، أمّا في الآخرة فكلّ مجزيٍّ بعمله في الدنيا، بحسب نية العامل فيه، وصلاح العمل، وحسن النتائج.

<sup>39</sup> الترمذي، جامع الترمذي، مرجع سابق، كتاب: الإيمان، باب: ما جاء أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، حديث رقم 2630، ص 426. وقال عنه الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح.

### ت. التفكير الاستشرافي:

هذا النوع من التفكير هو تفكيرٌ يتطلّع إلى المستقبل، ويتفهّم اتجاه الأحداث؛ ليستشرف المآلات، ويرسم "السيناريوهات" أو البدائل الممكنة، ويرسم "الاستراتيجية" أو الخطة اللازمة للوصول إلى البديل المنشود. وعنصر الزمن هنا عنصرٌ مهم جداً، والزمن ماضٍ، وحاضر، ومستقبل.

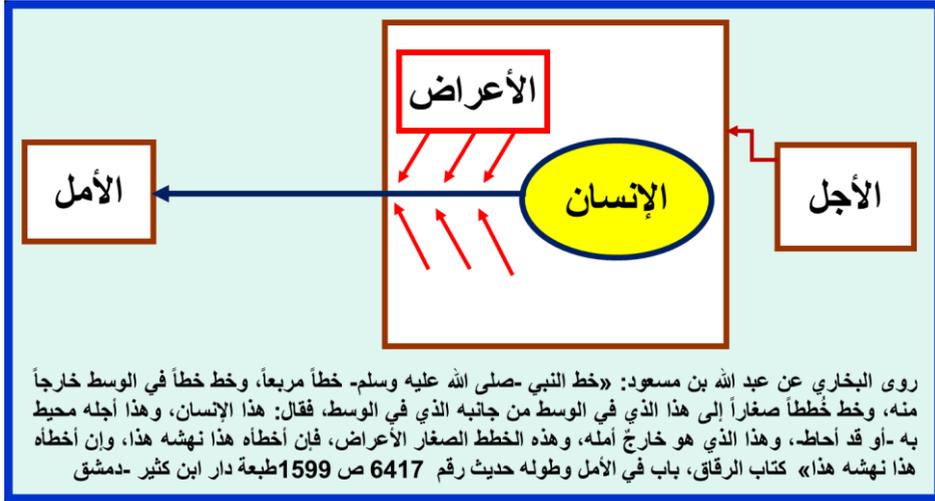


ولو عبّرنا عن الزمن بوحدات متلاحقة، واخترنا الدقيقة أو الساعة أو اليوم لتكون وحدة القياس للزمن، ورسمنا الوحدة الواحدة على شكل دائرة

صغيرة، فنسجد أن الحاضر هو دائرة واحدة، يسبقها دوائر لا عدّها لها، تمثل وحدات الزمن الماضي، ويليهها دوائر لا عدّها لها كذلك تمثل وحدات الزمن المستقبل، وسوف نستنتج أنّ الحاضر هو اللحظة التي سرعان ما تدخل في عالم الماضي؛ فعمر الحاضر قصير جداً.

وإذا كان الأمر كذلك، فإننا سوف نستنتج أننا دائماً في حالتنا الحاضرة نتاج الماضي، وأن آثار الماضي رُبما تشدُّ الإنسان إليه، وتقيّدُه به، وربّما لا تسمح له أن يسلك في لحظة الحاضر إلا سلوكاً محددًا؛ لأنّ قصر هذا الحاضر لا يسمح للإنسان بحرية كبيرة للاختيار الواعي. أمّا المستقبل فإنّ الإنسان يصنعه لحظة بلحظة، فإذا كان نظر الإنسان إلى اللحظة القادمة فإنّ خياراته تكون محدودة تماماً، ويكون أكثر حرية في الاختيار كلما نظر إلى لحظات أبعد إلى الأمام. فالتفكير في شكل تلك اللحظات، وما الذي يمكنه أن يملأها به من أعمال، هو تفكير استشرافي مستقبلي لكنّه تخطيط قصير المدى، يجعل الإنسان يلهث أمام اللحظة لتصبح (تلك اللحظة) بعد لحظة خلقه، ولذلك فإنّ قيمة التخطيط للمستقبل تكون في الاستعداد الكافي الذي يتطلب وقتاً وجهداً، وكلما نظر الإنسان إلى مدى أبعد في الزمن المستقبل تمكن من الإعداد الأفضل، لكن بعض لحظات المستقبل القريب حاسمة لا تنتظر، فشأنها مهم جداً، وعاجل جداً.

ويكون التفكير الاستشرافي المستقبلي الاستراتيجي محققاً للتكامل في تشكيل حياة الفرد أو حياة المجتمع، عندما يتضمن هذا التفكير رؤية استشرافية على المدى القريب، والمدى المتوسط، والمدى البعيد. وهذا يسمح للإنسان أن يتخيّل المراحل التي يمكنه أن يلزمه أن يمرّ بها ويخطط لها، ويوفّر لها ما يلزمها من تجهيزات.



والتفكير في مستقبل حياة الفرد جزء من فطرة الإنسان في القلق الناتج عن الطموح في الكسب في هذه الدنيا على طول عمر الإنسان، الكسب من التعلّم والدراسة، والكسب في بناء الأسرة، ومجيء الأبناء والأحفاد، وتوثيق روابط النسب والصهر، والكسب في المال والممتلكات، والكسب في المنصب والتأثير، والكسب في الشرف والذكر الحسن... إلخ. وكلّ ذلك يراود الإنسان في مراحل حياته المختلفة، وكلما تحقّق له شيء من ذلك طمع في المزيد، حتى يدركه أجله. وليس في ذلك من ضير إذا كان يؤدّي في كلّ ذلك حقّ الله، وحقّ المجتمع والأمة. ويتغي به عمران عُمره وديناه بالخير، وفضل الله في أخراه بالقبول. وتندكر في هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها".<sup>40</sup>

<sup>40</sup> ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني. مسند الإمام أحمد، تحقيق: الشيخ شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1421هـ/2001م، ج 20، حديث رقم 12981، ص 296. وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط عنه في تحقيقه للمسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

والأمر لا يقتصر على التفكير فيما يناله الإنسان من كسب في مستقبل عمره في الدنيا، وإنما يمكن أن يمتد تفكيره إلى كسبه في دنيا الناس من بعده. ومن ذلك أنه: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو عِلْمٌ يُنتفع به، أو وَلَدٌ صالح يدعو له).<sup>41</sup> ولننظر إلى الثانية من هذه الثلاث: "أو علم ينتفع به"، فما خلفه علماء الأمة عبر القرون من مادة مكتوبة هو هذا التراث العظيم، الذي لا تزال أجيال الأمة تتعلمه وتتعلّم منه، جيلاً بعد جيل. وما الذي كُنّا نعرفه عن البخاري ومسلم عليهما رحمة الله لو لم يكتب كل منهما صحيحه؟! هل كان يمكن للرواية الشفوية أن تسدّ مسدّ الكتابين؟! ومن هو الطبري، والقرطبي، وابن كثير وغيرهم لو لم يكتبوا التفسير؟! ولو طوبنا من صفحات التاريخ كثيراً من الصفحات حتى نصل إلى العصر الحديث، يمكننا أن نسأل: من هو مالك بن نبي -على سبيل المثال- لو لم يخلف لنا هذه الكتب التي ألفها وتركها من بعده، فيذكره الناس بها ويفيدوا منها، ويدعون له بالرحمة؟! لقد ملأ هؤلاء العلماء مساحات واسعة من أعمارهم يفكرون، ويكتبون أفكارهم، فانتفع بما كتبوا خلقٌ كثير في حياتهم، وتواصل النفع بعد مماتهم حتى الساعة، وسوف يتواصل بإذن الله. وفي ذلك يقول الشاعر:

وما من كاتبٍ إلا سيئني      ويبيقى الدهر ما كتبت يداه  
فلا تكتب بكفك غير شيء      يسُرُّكَ في القيامة أن تراه<sup>42</sup>

ويقول أحمد شوقي:

لم يمُتْ مَنْ لَهُ أَتْرُ      وحياءةٌ مِنَ السِّيرِ

<sup>41</sup> الترمذي، جامع الترمذي، مرجع سابق، كتاب: الأحكام، باب: في الوقف، حديث رقم 1376، ص 242. وقال عقبه: هذا حديث حسن صحيح، وهو بنحوه عند مسلم، في صحيحه، كتاب: الذكر والدعاء، باب: كراهة تمني الموت لضر نزل به، حديث رقم 2682، ص 1077. ولفظه عنده: "أَلَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ، وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمرُهُ إِلَّا حَبْرًا." وكلاهما عند الترمذي وعند مسلم عن الصحابي أبي هريرة.

<sup>42</sup> ينسب البيتان للشافعي، لكنني لم أجدهما في طبعتين للديوان:

- الأولى: ديوان الإمام الشافعي المسمى "الجواهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس"، من إعداد محمد إبراهيم سليم طبعة مكتبة ابن سينا بالقاهرة، سنة 1988م.

- الثانية: ديوان الإمام الشافعي طبعة بعناية عبد الرحمن المصطاوي، بيروت: دار المعرفة، ط3، 2005م.

آبَتِ الشَّمْسُ والقَمَرُ	آيِبُ الفضلِ كَلِمَا
مَيِّتَ الخَيْرِ والخَبِيرِ	إِنَّمَا المَيِّتُ مَنْ مَشَى
وَإِذَا مَاتَ لَمْ يَضُرَّ	مَنْ إِذَا عَاشَ لَمْ يَفِدْ
يَتَلَقَّونَ فِي الفِكَرِ	وَقُصَارَى أُولَى التُّهَى

إن التفكير المستقبلي يوفر للإنسان فرصة، لإدراك قيمة الوقت التي يتاح له في عُمره ويتجاوزها للتخطيط ليعيش أطول من عُمره، أو يعيش أكثر من حياة.

والتفكير في مستقبل المجتمع والأمة لا يقلُّ أهمية عما أشرنا إليه من التفكير لمستقبل الفرد. والسؤال هنا هو: من الذي يفكر في مستقبل المجتمع؟! والجواب: إنَّ كلَّ فرد في المجتمع له موقعه في هذا التفكير، ولكن هذا المسؤولية التي يتحملها الفرد تتوقف على المرتبة التي يُشغلها في سُلَّم المسؤولية، فكلما علت الرتبة زادت المسؤولية، وتتوقف كذلك على نوع المصالح المطلوب تحقيقها في كلِّ مرتبة، وراهنية هذه المصالح وشدة الحاجة إليها، فقد تكون في تدبير أمور مدنيّة تختص بالزراعة أو الصناعة أو التجارة، وقد تكون في تدبير أمور التربية والتعليم والتوجيه والإعلام، وقد تكون في حماية حقوق الناس، وتحقيق العدل في الخصومات، ورفع الظلم والفساد، وقد تكون في تدبير القوة والمنعة التي تحمي المجتمع وتدفع عنه الأعداء، وقد تكون جهاداً في سبيل الله ورفع شأن الأمة، وإعلاء كلمتها بالسلح القوي، واليد الماهرة، والكلمة البليغة، المقروءة والمسموعة، والموقف المحسوب.

إنَّ تحقيق كلِّ هذه المصالح والواجبات، هو همّ يشغل بال الإنسان الصالح المصلح، يفكر فيه في كلِّ أحواله، ويسعى من أجله بكلِّ طاقته. أمّا الذي لا يهتم بهذا الهمّ فلا يفكر فيه، ولا يشغل خاطره به، فإنَّ مصيره أن يحرم الجنة، ذلك أنّه: "ما من عبد يسترعيه الله رعيّة، ثم لم يُحطِّبها بنُصْحِهِ إلا لم يدخل الجنة".<sup>43</sup>

<sup>43</sup> البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب: الأحكام، باب: من استرعي رعية فلم ينصح، حديث رقم 7150، ص 1364.

وتاريخ المسلمين يمتلأ بشخصيات استوعبت الأهمية البالغة للتفكير الاستشراقي-المستقبلي-الاستراتيجي في تحقيق مصالح الناس عبر الأزمان القادمة، فلم تكنف بالتفكير في تقديم الخدمة الفورية لمن عُرف أنه يحتاجها، وإنما سعت هذه الشخصيات إلى التفكير في أن تكون هذه الخدمة متاحة لمن سوف يحتاجها على المدى الزمني القريب والبعيد. ومن هنا كان التفكير في إنشاء المؤسسات التي تتصف بالاستمرار بعد موت من يُنشئها، وحتى يضمن هذا الاستمرار فقد أوقف المؤسس أوقافاً تُدرّ دخلاً لاستمرار خدمة هذه المؤسسات. وقد بقي المجتمع الإسلامي يَنعم بكثير من هذه المؤسسات المستقرة والمستمرة في خدماتها، حتى عندما كانت البنية السياسية للحكم في المجتمع في أسوأ أحوالها.

لقد شملت المؤسسات الوقفية المساجد، والمدارس، والمكتبات، والمشافي (البيمارستانات)، والفنادق (الخانات)، ورباطات الجهاد في سبيل الله، وخدمات الطعام والماء والنظافة، وكثيراً من صور الخدمات الاجتماعية. والشاهد في هذا السياق هو أنّ نظام الوقف وتشريعاته الفقهية كان مثلاً بارزاً من أمثلة التفكير المستقبلي في واقع المسلمين، ومثلاً على تحويل التفكير في تقديم الخير من الحالات الشخصية التي تربط من يقدم الخير إلى من يأخذه في الحال، إلى التفكير في إنشاء المؤسسة الوقفية التي تستمر خدماتها في الأحوال الأخرى على مدى المستقبل.<sup>44</sup>

ويدخل في الحديث عن التفكير الاستشراقي المستقبلي، نوع من التفكير يُسمى التفكير الاستراتيجي، وهو نوع (أو نمط) "من أنماط التفكير العام، يتضمن مجموعة من القدرات الاستشرافية، والحدسية، والابتكارية، والإبداعية، والنقدية)... للوصول إلى أفكار جديدة... ويستمد التفكير الاستراتيجي أهميته من كونه أداة لصناعة المستقبل... فمن يعجز عن التنبؤ بالمستقبل غير جدير بالعيش فيه... والعلاقة بين رأس المال الفكري والتفكير الاستراتيجي علاقة وطيدة جداً؛ لأنّ المفكرين الاستراتيجيين الذين تقع عليهم

<sup>44</sup> أبو زيد، أحمد. نظام الوقف الإسلامي، الرباط: منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، 2008م. انظر أيضاً:

- مسقاوي، عمر. نظام الوقف وأحكامه الشرعية والقانونية، دمشق: دار الفكر، 2010م.

مسؤولية التفكير الاستراتيجي هم جزء من رأس المال الفكري... كلُّ مفكر استراتيجي يعدّ رأس مال فكري، ولكن ليس بالضرورة كلُّ رأس مال فكري هو مفكر استراتيجي.<sup>45</sup>

وإذا كان التفكير الاستراتيجي هو أحد الوظائف الأساس لمراكز البحوث الاستراتيجية وأدمغة الأفكار، بهدف فهم الواقع ومشكلاته واتجاهات حركته، فإنّ التخطيط الاستراتيجي هو الذي توصي به دراسات تلك المراكز، حين تضع خرائط التحول الممكنة أو المرغوبة، وما تتضمنه من حلول وبرامج وقرارات.

### خاتمة:

لم يكن الغرض من هذا البحث استقصاء أنواع التفكير، والتوسع في تفاصيل كل نوع. وإنما كان الغرض إثارة الاهتمام بموضوع التفكير، والإشارة إلى أن دراسته تتم من مداخل متنوعة، وتصنيف أنواعه يتم بمعايير مختلفة، ولأغراض مختلفة، وينتهي الأمر دائماً بوجود أنواع من التفكير لكل منها خصائص مختلفة. وربما يكون التعدد والتنوع والاختلاف بين أنواع التفكير تعبيراً عن جوانب متعددة من الاهتمام بموضوع التفكير، وفئات متعددة من المهتمين بدراسة التفكير.

ونتوقع أن تؤدي معرفة الإنسان بأنواع التفكير والهدف الأساس والمهارات التي يتضمنها كلُّ منها، والخصائص المميزة لها منها، إلى تمكينه من توظيف النوع، أو الأنواع، التي يشعر بحاجته إليها، واكتساب المستوى المناسب من مهاراتها اللازم لتحقيق ما يودّ أن تتصف به شخصيته، ويعرف بين الناس به.

ويمكن النظر إلى أي نوع من أنواع التفكير من جانبين: إيجابي نريد الزيادة فيه لإدراكنا لفائدته، وسلبي ندرك مقدار الضرر المتحقق من نقصه أو من وجود الصفة المقابلة له. لكن ذلك ليس على إطلاقه، فقد رأينا مثلاً أن التفكير خارج الصندوق مهم

<sup>45</sup> المرعبي، عادل حرحوش، وصالح، أحمد علي. رأس المال الفكري، طرق قياسه وأساليب المحافظة عليه، القاهرة: المنظمة العربية للتنمية الإدارية، 2003م، ص 49-50.

ومفيد، إلى الحد الذي لا يفقد الإنسان ما يعتزّ به من موقعه الفكري وهويته الفكرية، وأنّ التفكير داخل الصندوق مهم ومفيد، للتعبير عن المدرسة الفكرية، ولكن إلى الحد الذي لا يفقد الإنسان ما يلزمه من حرية التفكير وطلاقة. والتفكير النقدي ضروري ولا يُستغنى عنه، لكن العقلية النقدية قد تتجاوز حدود الفائدة المنشودة منها حين يكون همها التفكيك والتحليل، مع عجزٍ عن البناء والتركيب ورؤية البدائل.

وربما يصعب أن نجد كل الجوانب الإيجابية من أنواع التفكير المختلفة متحققة في شخص واحد؛ إذ الواقع العملي يشهد بأن الإنسان في الغالب يتميّز بقدراتٍ دون أخرى، وفي هذه الحالة فإن التخطيط في المناهج التربوية وبرامج التنمية البشرية وتطبيقاتها في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، يتطلب أن تكون هذه البرامج قادرة على اكتشاف القدرات المتميزة في الأفراد، وتوفير الفرص الكافية لكل فرد أن ينمو إلى الحد الأقصى الذي تمكنه منه قدراته. وفي الوقت نفسه فإن التخطيط ينبغي أن يستكمل ما قد يُكتشف من نقص في أنواع التفكير اللازمة في المؤسسة أو المجتمع، وأن يعالج ما قد يُكتشف من أعراض سلبية في أنواع التفكير السائدة.